(التعريف والنقد)

رسالة عبد الحميد بن يحيى

إلى وليّ العهد عبد الله بن مروان الثاني

للمستشرقة الألمانية (هانيلوره شونيغ)

الدكتور محمد كامل عياد

تلقت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق بعض الكتب باللغة الألمانية من مطبوعات لجنة الاستشراق التابعة لمجمع العلوم والآداب في مدينة (ماينتس) بألمانية الغربية ، لاطلاع القراء على ماينشره المستشرقون من دراسات وتعريفهم بما تتضمنه من آراء .

وقد نشرت هذه اللجنة حتى الآن (٣٨) كتاباً ، منها كتاب للمستشرق (ايفالد واغنر) عن أبي نواس (في ٥٣٢ صفحة) يشمل دراسة عن الأدب العربي عامة في العهد العباسي الأول ، ثم كتاب (ليوسف فان أس) يتضمن ترجمة القسم الأول من كتاب (المواقف) تأليف (عضد الدين الايجي) مع شرح نظريته في المعرفة (٥١٠ صفحات) ، ثم كتاب بقلم الباحثة (هلغا فنتسلاف) عنوانه : (تاجر العقاقير المراكشي وبضاعته) يهدف إلى التعريف بمصطلحات المواد الطبية العربية ، واستخدامها المتوارث لدى الشعب ، وقد ألحقت به خريطة وكثيراً من اللوحات والصور (٢٤٥ صفحة) ، وأخيراً المجلد رقم (٣٨) الذي صدر في (شتوتغارت) سنة ١٩٨٥ ، وعنوانه : (رسالة عبد الحميد بن يحيى إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولي العهد عبد الله بن مروان الثاني) ، وهو الذي يسرنا هنا التعريف به والتحدث عن أهميته .

انه كتاب صغير لايتجاوز (١٥٤) صفحة من تأليف باحثة المانية حديثة اسمها (هانيلوره شونيغ) ، وهي تقول في المقدمة إن موضوع الرسالة التي تعتبر من أول الشواهد على نشأة النثر العربي في أواخر العهد الأموي لم يلق حتى الآن إلا القليل من العناية لدى علماء الاستشراق الغربيين . فليس في الطبعة الأولى من الموسوعة الإسلامية (سنة ١٩١٣) مقالة مناسبة عنه ، بل إن الأستاذ (ريختر) في « دراساته عن تاريخ أقدم المؤلفات العربية في الآداب السلطانية » لايذكره البتة . والمحاولة الأولى لإبراز شخصية عبد الحميد الكاتب ووضعها في المقام الذي تستحقه إلى جانب معاصره الأكثر شهرة (ابن المقفع) إنما كانت المقالة التي نشرها المستشرق الإيطالي (فرنسيسكو غابرييلي) في سنة ١٩٥٧ وأشاد فيها ببلاغة هذه الرسالة وبأهميتها الأدبية .

إن هدف الباحثة الألمانية هو أن تثير لدى الغربيين الاهتمام الذي يستحقه عبد الحميد الكاتب وإبراز مكانته في نطاق آداب النثر العربي المبكر . ولهذا قامت من جهة بترجمة رسالة عبد الحميد إلى ولي العهد وحاولت من جهة أخرى أن تبحث فيها وتحللها بالتفصيل وتبين خصائص أسلوبها التي أشار إليها (غابرييلي) باختصار .

بدأت الباحثة بترجمة سيرة المؤلف وذكر مجموع آثاره ، فاعترفت بأنه لم يصلنا إلا القليل من المعلومات عن حياته ، وأن الحوادث المنقولة عنه تقتصر على قصص ونوادر لاقيمة اخبارية لها عدا أنها متناقضة في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغالب . إنه ليس هناك معلومات موثوقة ومتفق عليها عن تاريخ ولادته ومكانها وعن أصله ونشأته بل حتى عن وفاته .

تذكر المراجع كلها أنه مولى العلاء بن وهب العامري القرشي . وتلاحظ الباحثة (شونيغ) أن ذلك لايدل بالضرورة على أنه من أصل فارسي ، أو بالأحرى من أصل غير عربي كما يدعي الكثيرون . وهي تقول : إن الموالي ينحدرون من جماعات مختلفة في أصولها وفي أسباب ولائها ، ثم تستشهد بأقوال الأستاذ محمد كرد علي الذي تحدث في كتابه (أمراء البيان) بالتفصيل عن العوامل العديدة التي تدفع إلى رابطة الولاء ، والذي استنتج من ذلك أن ليس هناك مايمنع من أن يكون عبد الحميد عربياً .

بعد تعذر إصدار حكم جازم على أصل عبد الحميد الكاتب انتقلت الباحثة (شونيغ) إلى الحديث عن الإطار التاريخي وعن ظروف الحقبة التي عاش فيها والعوامل التي تركت آثارها في تكوين شخصيته وتطور ثقافته . وقد ذهب (غابرييلي) إلى أن عبد الحميد ولد حوالي سنة ٧٠٠ م (٨٠ ـ ٨١ هـ) لذلك تستبعد الباحثة ، خلافاً لرواية انفرد بها (ابن عبد ربه) في (العقد الفريد) ، أن يكون قد خدم في بلاط (عبد الملك بن مروان) ثم (يزيد بن عبد الملك) . ويذكر الرواة أنه كان أولاً معلم صبية يتنقل في البلدان ، ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق لعهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٣) حيث كان ختنه (أبو العلاء سالم بن عبد الله) مولى هشام رئيساً لهذا الديوان . وهو الذي علمه ودرّبه على صناعة الترسل . وفي هذا الوقت تعرف على (مروان بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

محمد) وتوثقت عرى الصداقة بينهما . فلما تولى (مروان الثاني) الخلافة سنة (٧٤٤) اتخذه كاتباً له فظل مخلصاً له حتى قتلا في وقت واحد بعد سقوط الأمويين سنة ٧٥٠ (١٣٢ هـ) .

كان (مروان بن محمد) قد برز في الحياة السياسية لأول مرة سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) ، عندما نصبه هشام والياً على (أرمينية) و (أذْرَبيجان) . وقد اكتسب في فترة ولايته كثيراً من الخبرة والمهارة في الأمور السياسية والعسكرية أفاد منها بعد توليه الخلافة ، حتى إن المؤرخين ينسبون إليه الاصلاحات التي أحدثت في نظام الجيش الأموي ، إذ استبدلت الصفوف بالكراديس المؤلف كل واحد منها بمائة رجل ، كما صار يُنْتقى لقيادة الفرق عسكريون مدربون عوضاً عن إخضاع المقاتلين لرؤساء القبائل .

وقد توالت الفتن والثورات في عهد مروان الثاني فاضطر أن ينقل مقره من دمشق إلى (حران) ، وأخذ يحارب العصاة في الشام ، ويحاصر مدينة (حمص) . ولما استفحل خطر الخوارج الذين جمعوا في الجزيرة جيشاً ضخماً بقيادة (الضحاك بن قيس) الشيباني أرسل ولي عهده (عبد الله بن مروان) لمجابهة هذا الجيش ، ولكن الفارق الكبير بين عدد الجنود اضطر ولي العهد إلى التحصن وراء أسوار (نصيبين) حتى انتهى (مروان الثاني) من فتح (حمص) فأسرع إلى نجدة ابنه وتخليصه من الحصار بعد المعركة التي قتل فيها (الضحاك) .

إن ثورة الخوارج هذه كانت بين مجموعة الأسباب التي دعت إلى تحبير رسالة عبد الحميد الكاتب . فقد أراد (مروان الثاني) ، بعد تعيين ولي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

عهده (عبد الله) لمحاربة الخوارج ، تزويده بجملة من الخبرات التي اكتسبها في حروبه ، فطلب من كاتبه عبد الحميد المرافق له تسجيلها في رسالة جامعة . لذلك يمكن اعتبار هذه الرسالة مرآة تعكس الفترة التي عاش فيها (عبد الحميد الكاتب) وظروفها السياسية ، كما أنها تعد في حد ذاتها حادثة ووثيقة تاريخية .

تتألف الرسالة من قسمين مختلفين في الموضوع :

١ ـ نصائح وتحذيرات وارشادات أخلاقية عامة وبالأخص آداب السلوك والمراسم المتبعة في القصر وقواعد التعامل مع الحاشية والجلساء من القادة والموظفين ومختلف طبقات الشعب .

٢ ـ شبه كتاب في فن الحرب وتنظيم الجيش .

بعد استعراض الفصول العديدة تنتقل الباحثة الألمانية إلى ترجمة رسالة عبد الحميد الكاتب ، محاولة الاقتراب من النص العربي والتمسك حرفياً بعباراته في سبيل المحافظة على أسلوب المؤلف بقدر الامكان . ثم تعقد فصلاً لشرح الرسالة من حيث الموضوع أولاً ثم اللغة والأسلوب ثانياً .

تبدأ الباحثة بالسؤال عن الينابيع الحضارية وبالأخص الأدبية التي استقى منها عبد الحميد الكاتب مضمون رسالته وأسلوبها .

وقد قيل إن عبد الحميد الكاتب كان يحسن الفارسية وانه نقل عنها بعض الكتب التي لم يصل إلينا شيءٌ منها . وترى الباحثة انه على الأقل كان مطلعاً على نماذج من الأدب الفارسي الذي كثرت الترجمة عنه في ذلك العهد . وكان معاصره وصديقه ابن المقفع من أنشط وأبرز المترجمين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن الفارسية ، وتدل مؤلفاته العديدة ، مثل (الأدب الكبير) و (رسالة في الصحابة) و (كليلة ودمنة) على ثقافته الواسعة في الفارسية والعربية اللتين برع في الجمع بينهما كما كان متأثراً بالفكر الهندي واليوناني .

وقد عقدت الباحثة الألمانية فصلاً للمقارنة بين عبد الحميد الكاتب وابن المقفع قائلة : إن الأخير الذي نال شهرة أوسع واهتماماً أكبر ، حتى لدى العلماء الغربيين ، كان مجوسياً أسلم في العهد العباسي ، وإن الرجلين يختلفان في موقفهما الديني ، إذ ان عبد الحميد في رسالته إلى الكتاب يتحدث باخلاص المسلم المؤمن الذي يخشى الله في حين أننا لانجد في كتاب (الأدب الكبير) لابن المقفع أي إشارة إلى ديانته ، الأمر الذي يؤيد رأي الكثيرين القائلين بأن إسلامه لم يكن صحيحاً وانه ظل متمسكاً بعقيدته (المانوية) أو (المزدكية) وحريصاً على نشر التراث الفارسي مما دفع المستشرق (غابرييلي) إلى اعتباره من السابقين إلى النزعة الشعوبية . ويعترف (غابرييلي) بأن (ابن المقفع) كان يحب اللغة العربية ويتقنها كل الاتقان ولكنه لايتردد في التضحية بالشكل في سبيل المضمون إذا اقتضى الأمر . انه مثل عبد الحميد يستخدم المحسنات اللفظية نفسها ولكن في نطاق محدود وبعبارات ضعيفة . وإذا كان أسلوبه واضحاً بوجه عام إلا أن إكثاره من الألفاظ المشتركة ، المتعددة المعاني يؤدي أحياناً إلى الغموض .

إن ابن المقفع كان يركز اهتمامه على المضمون وفحوى الكلام ولايوجه عناية خاصة إلى الشكل والأسلوب . إنه يتبع العقل والمنطق ويعبر عن أفكاره مباشرة عوضاً عن اللجوء إلى المجاز الشعري والاستعارات البديعية . وعلى العكس من ذلك يسعى عبد الحميد الكاتب إلى الجمع بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

الناحيتين . فالأسلوب والتنسيق والتنظيم في بناء الكلام تستحق في نظره من الاهتمام بقدر المضمون الذي لايكتسب قوة التعبير والتأكيد إلا عن طريق الشكل .

ذهب الدكتور طه حسين (في كتابه : من حديث الشعر والنثر) إلى أن عبد الحميد الكاتب كان شديد الاتصال بالثقافة اليونانية بدليل إسرافه في استعمال الحال التي يعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم ، ثم بدليل نصيحته في الرسالة إلى ولي العهد بتنظيم الجيش في وحدات ، كل واحدة من مائة رجل مثلما كان مألوفاً عند اليونان . وقد لاحظ (غابرييلي) أن الدكتور طه حسين يبالغ في إعجابه بالثقافة اليونانية ومدى تأثر عبد الحميد الكاتب بها . وحاول الأستاذ (شوقي ضيف) في كتابه (الفن ومذاهبه) أن يقف في منزلة وسطى بين الدكتور (طه حسين) وبين القدماء الذين أجمعوا على تأثره بالفرس فقال ان هذا التأثير كان مباشراً . اما تأثره باليونان فلعله جاءه عن طريق ختنه (أبي العلاء سالم) الذي يقول عنه صاحب (الفهرست) انه كان أحد الفصحاء ، البلغاء وانه نقل رسائل أرسطاليس إلى الاسكندر .

عدا ذلك لم يكن عبد الحميد الكاتب بحاجة إلى مطالعة كتب اليونان لمعرفة نظام الجيش لديهم ، إذ كان يرافق (مروان الثاني) وولي عهده في الحروب ، ويشاهد الاصلاحات العسكرية بنفسه . والغريب من جهة أخرى أن يزعم الدكتور (طه حسين) أن عبد الحميد نثر في رسالته كثيراً من الأوصاف التي أخذها من قصيدة (أوس بن حجر) المشهورة في وصف الرمح . فإن نظرة خاطفة تثبت لنا أن تلك القصيدة لاتتضمن إلا القليل جداً من مصطلحات رسالة عبد الحميد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعد استعراض الظروف التاريخية والأجواء الثقافية التي عاش فيها عبد الحميد الكاتب تنتقل الباحثة الألمانية إلى بيان مكانته وأثره في تطور الأدب العربي ونشأة النثر الفني ، فتستشهد بعبارة وردت عند (ابن خلكان) وشاع تكرارها والتي تقول : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ، وتلاحظ الباحثة أن اسم ابن العميد إنما جرته لازمة السجع ، وأن المقصود بالمدح هو عبد الحميد الكاتب وحده . ثم ترد على قول الأستاذ (شوقي ضيف) بأن الرسائل قد بدأت منذ فاتحة العصر الاسلامي مشيرة إلى أنه لم ينقل إلينا من الخطب وكتب الخلفاء والولاة إلا القليل ، وهي مختصرة ومن غير تفنن خاص ، تقتصر على الأمور الادارية والتعليمية . ثم تضيف قائلة : مهما كان الأمر فان رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولي العهد هي الأولى من نوعها التي وصلت إلينا . ويمتاز عبد الحميد بانه كان يتقن اللغة العربية ويصرفها كما يشاء بالاضافة إلى موهبته الخطابية النادرة التي تساعده على استخدام مختلف وسائل التعبير وتنظيم اسلوبه بالتنسيق بين الشكل والمضمون .

فرسالته أبلغ شاهد على عبقريته .

وقد خصصت الباحثة (شونيغ) فصلاً لدراسة لغة عبد الحميد وأسلوبه وأشارت إلى ماحظي به من مدح في كتب الأدب العربية وكتب المستشرقين . فكان يضرب به المثل في البلاغة والفصاحة حتى أصبح إماماً وقدوة للذين جاؤوا بعده من كتاب الرسائل . وتستشهد الباحثة بكلمة الأستاذ (شوقي ضيف) التي يعبر فيها عن إعجابه بهذا الكاتب وتقديره له إذ قال : « الكتابة عنده تروق العين والأذن كما تروق العقل والقلب » . كما لاحظ أحد المستشرقين ان نثره لايدل على صنع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كاتب يسجل الحروف بل إنما هو خطيب وكأنه يريد ترتيل كلمات رسالته بصوت عال . ثم تقول الباحثة الألمانية : ان أبرز خصائص أسلوب عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى ولي العهد هي العبارات الكثيرة ، المتوازية ذات التوقيع والتعادل الصوتي . وقد اشتهرت الرسالة بالتطويل والإسهاب . فعبد الحميد لايعبر عن الفكرة بكلمة واحدة ، وإنما في عبارتين أو عبارات عديدة تتلاحق بصورة تؤدي إلى تعادل موسيقي .

ويتبين من دراسة الرسالة كلها اهتمام كاتبها وعنايته الزائدة بالأسلوب . وقد قامت الباحثة باستعراض العناصر الأساسية التي استخدمها عبد الحميد في الإنشاء مع أمثلة عديدة واضحة .

تمتاز اللغة العربية بكنز غني من المفردات التي تكثر بينها أولاً : الكلمات المشتركة ، متعددة المعاني حتى نرى أحياناً الكلمة تفيد في الوقت نفسه ضدها ، وثانياً : هناك عدد كبير من المترادفات . ان عبد الحميد لم يكن يقصد الاستعانة في أسلوبه بالكلمات المشتركة . أما المترادفات فكان يستخدمها بكثرة ولكن لغاية خاصة هي توضيح وتأكيد المعنى ثم تحقيق التوازن الموسيقي عن طريق انتقاء وتنسيق الكلمات مزدوجة . ثم تسترسل الباحثة في تعداد المحسنات اللفظية التي برع عبد الحميد في استخدامها من تضادّ وطباق ومقابلة واستعارة وتشبيه ومجاز وتجنيس الاشتقاق . وخلافاً لما شاع عنه كان السجع نادراً في رسالته ، إنما كان يكثر من الترصيع الذي يرافق السجع أحياناً . ولعل أبرز خاصة له هي كثرة استعماله للحال والتمييز . ويبدو أنه قد اقتبس ذلك عن أستاذه (سالم) وابنه (عبد الله) اللذين كانا أيضاً يكثران من استعمال الحال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تقليداً لليونان . وكذلك الأمر في استخدامه للصفة إذ كان يضعها من الجملة حيث يقتضي وضعها ، ثم في تقسيمه الكلام إلى فصول حيث يؤدي كل جزء فكرة ومعنى .

على أنه مهما كان عبد الحميد قد اقتبس من الأدب الفارسي أو اليوناني سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة فإن تأثير الخطباء من العهد الجاهلي وصدر الإسلام كان أبلغ وأكثر وضوحاً . وعندما سئل عبد الحميد نفسه كيف اكتسب هذه البلاغة أجاب : « بحفظ كلام الأصلع » وهو يقصد الخليفة علي بن أبي طالب . وعلى كل حال فان دراسة الرسالة إلى ولي العهد تبرهن على أن عبد الحميد الكاتب كان رجلاً مثقفاً يحفظ القرآن وكثيراً من الأشعار ويملك ناصية اللغة العربية ، ويمتاز بالفصاحة والبلاغة . وتعود الباحثة إلى تكرار عبارة وردت في (العقد الفريد) : « كان عبد الحميد أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر » . عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا ، ثم تقول : « إن عبد الحميد الكاتب كان رائداً ، سبق أنموذج الأديب في القرن الثالث الهجري الذي كان يمثله الجاحظ أحسن تمثيل ، والذي امتزجت لديه المبادئ الانسانية بالمثل الأعلى الأموي في الشرف والنزاهة بالاضافة إلى تراث الجاهلية العربية » .

لقد أجادت الباحثة الألمانية (شونيغ) في رسم شخصية عبد الحميد الكاتب المتميزة ، المستقلة ، وفي بيان ثقافته الواسعة ومواهبه اللغوية والبديعية ، وإبراز مكانته في تطور الأدب العربي ونشأة النثر الفني ، وبذلك استطاعت أن تكشف عن ناحية لامعة ، خلابة من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية مازال أكثر الغربيين يجهلونها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة